القرآن مصدر انطلاق

للأستاذ محمد سلام مدكور

رئيس قسم الشريعة الاسلامية
بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة

نعم ان هناك ارتباطا بينا بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، ولكي نتصور هذا الحكم بوضوح فان علينا ان نفرض ان اللغة العربية ظلت قاصرة على التخاطب او الخطابة او الكتابة او النظم فى الجزيرة العربية وحدها ، مع اعتبار ان رسالة النبي محمد صلوات الله عليه رسالة عامة كافة مصداقا لقول الله سبحانه : « وما ارسلناك الا كافة للناس » فهل كان يمكن ان اولئك المكلفين بما ارسل به محمد فى غير الجزيرة العربية يتفهمون ذلك الدين الجديد حتى يقوموا بتكاليفه وينهضوا بأعبائه ؛ ولهذا فان الواقع الطبيعي المستمد من منهج محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه انهم بدأوا ينفذون رسالة الاسلام بلغة العرب ؛ وكان المرسل اليهم من الامم الاخرى يضطرون الى ترجمة ما يبعث اليهم من النبي او اصحابه كما تدل على ذلك كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك ورؤساء الامم المحيطة بهم . وهذا يدعو الى ان **تتعلم الامم المختلفة لغة الاسلام وهي اللغة العربية** حتى تستطيع ان تتجه الى هذا الدين الجديد وتسير على وفق مناهجه .

واذا كانت هناك ترجمات من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية وقعت فى عصور الخلفاء العباسيين فمن بعدهم فانما كان يدعو الى ذلك القصد الى تزويد الامة العربية بثقافات يستطيعون ان يتعايشوا بها مع الامم الاخرى التي دخلت فى الاسلام .

وقد دل الواقع التاريخي الطبيعي ايضا على ان الامم التي دخلت فى الاسلام من الفرس والروم والهنود وغيرهم **اقبلوا اقبالا عجيبا على دراسة اللغة العربية** واوغلوا فى تصنيف الكتب وتنويع العلوم التي تخدم القرءان والسنة النبوية ، وكان لذلك اثره العظيم في خدمة تفسير القرءان الكريم ودراسة السنة النبوية .

فسيبويه واضع النحو فى اوائل العصر العباسي، **وعبد القاهر الجرجاني** امام البلاغة الاول **والسكاكي** امامها الثاني فى عرف البلاغيين ثم **ابن جرير الطبري** امام المفسرين بالآثار **والزمخشري** امام المفسرين بالصناعة العربية الذي قيل فيه وفى السكاكي : لولا الاعرجان لضاعت بلاغة القرءان ، وكثرة كاثرة من امثال هؤلاء لم يكونوا من عناصر عربية ، وانما كانوا من عناصر اعجمية دخلت فى الاسلام فشمرت عن ساعد الجد لدراسة اللغة العربية فى مفرداتها وفى اساليبها وفى معارفها وفى آدابها مما سلط الاضواء المنيرة على الاسلام حتى دخل الناس فيه افواجا وامما ، وحتى **غزت لغته كثيرا من الامم** حتى يستطيعوا التعمق في تفهم احكام الدين وثقافاته المختلفة .

وفى الائمة المجتهدين الامام الاعظم **ابو حنيفة** النعمان الذي اخذ عنه بالمباشرة او الوساطة كثير من الائمة ؛ لولا تعلمه لغة العرب لما استطاع ان يصل الى ما وصل اليه فى مراتب الاجتهاد . فهذا الخضم الجم

من المؤلفات العربية ، الذي كان مادة للمسلمين وغير المسلمين كالمستشرقين وعلماء اوربا الذين اقتبسوا كثيرا من العلوم والمعارف والمدنيات والحضارات من معارف الاسلام ، فلم يكن ليتسنى لهم ذلك **لولا تعلمهم اللغة العربية** واعتبارها اساسا لفهم ثقافات الاسلام التي لها اكبر الاثر في تصحيح الحقائق وتهذيب النفوس واصلاح السلوك ووضع نظم العدالة .

وبهذا يظهر اننا نناصر الراي القائل بوجود **سببية بين الاسلام واللغة العربية** فان دين الاسلام هو الذي تسبب في انتشار اللغة العربية على الوجه الذي اشرنا اليه وجعلها مصدر اشعاع روحي وعقلي وخلقي باعتبار انها هي التي تصور مبادىء ذلك الدين وما يدعو اليه من السمو في مختلف النواحي .

وحقا **لولا الاسلام لما تاتى للغة العربية ان تنتشر في العالم** هذا الانتشار لانها كانت لغة قوم جاهليين محصورين في جزيرتهم مشتملين على انفسهم غير ظاهرين على غيرهم تضعف قوتهم اختلافاتهم وتفككهم وخروج بعضهم على بعض ، وتسلط القوي منهم على الضعيف مما ادى الى ايقاعهم تحت سيطرة امتين ، هما : الفرس والروم ، فلما جاء الاسلام انتشلهم من وهدتهم وجمع كلمتهم ووحد صفوفهم حتى كانوا هم الغالبين ، وصارت لغتهم في فترة وجيزة **تغطي منطقة فسيحة من البلاد من غرب اوربا الى شرق آسيا وشمال افريقيا** وغير ذلك .

واذا اردنا ان نستدل على صحة هذا الراي بواقع البيئة الاقليمية وماضيها ، فاننا نجد مصر قبل الاسلام ، كانت تلهج بلغات مختلفة ، هي اللغة القبطية ولغة الدول المستعمرة . فلما دخلها الاسلام بنوره اتجهت الانظار اليه وتطلع العلماء الى الرغبة في التزود منه ، وكان هذا سبيلا الى تعلم اللغة العربية ، ثم تجلت محاسنها في معارفها وفي آدابها حتى غزت هذه اللغة ما عداها من اللغات ، وصارت لغة التخاطب والكتابة والشعر والعلم بمختلف فروعه .

وقد اعان **لغة العرب** على تحقيق ذلك الظفر والظهور انها **لغة حية فتية** تتميز بشبابها في كل عصر **وتتسع لكل ما يجد من صور الحضارة** ومظاهرها ومختلف الثقافات والمعارف ، وهذا المعنى يزداد وضوحا كلما اتجه المجتمع الانساني نحو التقدم والرقي ، فان **اللغة العربية** تجد نفسها **غير عاجزة عن مسايرة كل جديد ، والتعبير عن اغراضه ومراميه .**

ونستطيع ان نقول تبعا لذلك ان قوة اللغة العربية معنى ذو اثر صالح في تقوية الوازع الديني لان **التعمق في دراسة اللغة العربية يستتبع لا محالة التعمق في فهم روح التشريع** الاسلامي الذي جاء بها القرءان الكريم والسنة النبوية ـ ولهذا يحتاج طلاب الدين الاسلامي دائما الى دراسة اللغة العربية ويجعلون ذلك وسيلة من وسائل السير في تعرف معاني القرءان الكريم والسنة النبوية على هدى وبينة فيكونون ابعد من غيرهم من العثار في فهمها . حتى ان العلوم التي تخدم القرءان والفقه وتعتبر بمثابة موازين للفروع الفقهية كعلم اصول الفقه تجعل من موادها واركانها ما يسمونه باللغويات التي ترشد من اراد التوسع في فهم الاصول الى الوقوف على بحث ما يهم في اللغة العربية ، كما انه من المتفق عليه انه يشترط في الشخص ليتحقق فيه وصف الاجتهاد ان يكون على علم باللغة العربية . وعلى عكس ذلك نجد ضعف الكلمة العربية كثيرا ما يكون سبيلا الى التخبط والزلل وعدم الامن من العثار لمن اراد الاستقلال بالبحث ، ولم يكتف بأن يكون تابعا لغيره وآخذا عنه ، مما يدل على اثر اللغة العربية في تفهم الدين ومدى الحاجة اليها لذلك . كما يدل على **اثر الدين الاسلامي في انتشار اللغة** واتساع افقها، **وهذا** القدر كاف في ايضاح ما هنالك من تلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة .

اما تاثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرءان في اللهجات فان ذلك يظهر مما دل عليه البحث التاريخي في لهجات العرب من انها كانت منتشرة ومختلفة اختلافا بينا ، فلما جاء القرءان الكريم بلغة قريش وآثر لهجاتها على لهجات غيرها من القبائل كان حرص المسلمين على لغة القرءان مما يزهدهم في مختلف اللهجات عدا لهجة قريش التي جاء بها القرءان ، وان كان القرءان لا يخلو من بعض اللهجات الاخرى تيسيرا على تلك القبائل التي يصعب عليها ان تنطق بلهجة قريش ، كما يتبين ذلك في بعض القراءات التي تختلف بين المد والقصر والتسهيل والهمز والاطالة وغيرها مما يتبين في موضعه من كتب القراءات، وهذا لا ينفي ان الاصل في القراءة هو القراءة بلهجة قريش وان وجود غيرها في القرءان من باب الترخيص الذي من شأنه ان يكون عند وجود العذر .

وقد نص ابو عبيدة معمر بن المثنى على ان قراءة القرءان كانت أولا بلهجة قريش ، فلما انتشر الاسلام

ودخلت فيه قبائل عربية مختلفة امر رسول الله أن يقرىء كل قوم بلهجتهم تيسيرا عليهم ، ولهذا فاننا نذهب مع المحققين من العلماء الى أن غير العرب ممن تستعصى عليهم حروف بعض الكلمات التي ليست فى لهجاتهم فان الدين يرخص لهم ان ينطقوها بما تتسع له قدرتهم ، ولا يكلفهم اكثر من ذلك كي لا يشق عليهم ، وهذا يدخل كما اشرنا فى الرخصة التي تقتضي التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم .

والملاحظ أن المصريين اكثر الناس قربا الى لهجة قريش وأخذا بطريقتهم فى الترتيل ، وقد يكون للازهر ومكاتب تحفيظ القرءان الكريم التي يشرف عليها من اخذوا بكثير من تعاليمه فى اللغة العربية مباشرة أو بواسطة من ينبثون من أبنائه فى مختلف نواحي القطر المصري ، واذا كنا نرى فى بعض اللهجات غير المصرية ، كما فى المغرب ، بل فى الحجاز نفسه ، شيئا من البعد عن لهجة قريش ، واللهجات العربية الاصيلة ، فان ذلك يرجع الى ما طرأ على الالسنة من تغير بمعاشرة مختلف الامم فى بلاد الحجاز ، والى ما تتاثر به بلاد المغرب من اللغة البربرية الاصيلة التي تزاحم اللغة العربية ، ولعل ايثارهم قراءة ورش يرجع الى قرب لهجتها من لهجاتهم ، ولهذا فاننا لا نستطيع ان ناخذ عليهم كثيرا من المآخذ فى ترتيل القرءان الكريم .

وبعد هذا كله تتجلى الاجابة على السؤال الاخير ، وهو أن اللغة العربية يجب أن تحتل فى بلادها فضلا عن غيرها من البلاد العربية والاسلامية **المكانة الرفيعة** والا تؤثر عليها لغات اخرى للمحافظة على الدين من ناحية والاستمساك باصوله وفروعه ولانها هي **اللغة التي** يمكن ان **تقرب وجهات النظر وتيسر التخاطب بين المسلمين** ، حتى تجتمع صفوفهم وتتحد كلمتهم .

هذا فضلا عما اشرنا اليه من انها لغة حية قوية وما نشير اليه الان من انها **لغة علم وادب وفن وحقائق وعواطف** وكل ذلك لا تستغنى عنه امة حية تنشد النهوض وتسعى اليه .